

(١) غرائب الغرب

الطباعة الباريزية

المعنا مرات في الفصول السالفة الى تفنن الباريزيين في الامور الذوقية والطباعة من جملة فنون الذوق وان كانت تتوقف على علم وفضل تجربة . واجور الطبع هنا غالية لعلاء الاسعار واجور الدور والمنازل فالعامل الجيد لا يرزق اقل من نصف ليرة واقل عامل لا يرزق اقل من اربعة فرنكات في يومه . وتلك ترى بعض ارباب المجلات وغيرهم من المؤلفين والطابعين يطبعون مجلاتهم وكتبهم في مطابع الولايات لرخص اجورها وجودة طبعها الذي لا ينفك عن المطابع الباريزية في شي .

ومن جملة المطابع العثماني التي زرتها مطبعة الامة اي مطبعة الحكومة التي أسسها لوزير الثالث عشر سنة ١٦٤٠ ثم نقلت الى قصر الكردينال روهان من اجل القصور الباريزية القديمة المعروف بيت اساقفة ستراسبورغ . وقد أنشئت لها بناية هائلة في شارع الكفانسيون لضيق هذا المكان على سعته البالغ سطحها عشرة آلاف متر مربع

تدخل من الباب فترى في فناء الدار تمثال غوتنبرغ مخترع الطباعة والمتفضل على الانسانية معمولاً من البرونز فلا تما لك من الدعاء له وذكر بيض اياديه على العالم ثم يأخذك الدليل في الوقت الذي تعينه لك من قبل ادارة المطبعة ويطوف بك قاعات مسابك الحروف وفيها حروف في ثمانين لغة واللغة العربية في مقدمة لغات الشرق رأينا في بعض الغرف كتبوايتناً من الشعر العربي ليرن الاستاذ العملة على تعلم هذه اللغة فيحسنوا تنضيد حروفها بفهم

(١) من كتاب لنا تحت الطبع

ثم طاف بنا الدليل قاعات التنضيد والتجليد والطبع والطباعة فقرأنا كل شيء
قد جعل في مكانه اللائق به والعمله والعاملات بمملون في مكان واحد كنفنا
الى كنف وقد يتولى الاعمال الشاقة الرجال من دون النساء . وعدد
العاملين والعاملات في المطبعة يناهز الالف والخمسمائة وفيها مايربو على ستين
آلة طابعة على آخر طرز منها خمس آلات من المعروف بالروتاتيف وعلى مثلها
تطبع جميع الجرائد الكبرى في الرب اليوم . وتنفق الحكومة على هذه
المطبعة نحو تسعة ملايين فرنك مساندة وفيها تطبع الجريدة الرسمية ومطبوعات
الحكومة والشارات ومناسيرها وفهارسها واوامرها فلا استعداد فيها تام لكل
ما تطلب الحكومة طبعه وليس في وقتها متسع لطبع مطبوعات الافراد
وناهيك بمطبعة حوت من الادوات ما يلزمها من سبك الحروف حتى التجليد
وناهيك بكثرة اشغال حكومة الجمهور به التي تقع ميزانيتها وحدها في ثلاثة
آلاف صفحة كبيرة يطالب طبعها في وقت قصير وهذا لا يتيسر الا بمطبعة
متقنة جداً .

ولهذه المطبعة معامل للتصوير الشمسي وطبع الصور والطبع المحفور
المجوف والحفر على الخشب والحفر على النقش والحفر الناقى وعلى النحاس والزنك
والطبع الملون وطبع الحجر والنصب وطبع النحاس وغير ذلك من التفنن
في الطباعة . وتسمح المطبعة باعارة الطابعين بعض الحروف الغريبة من
اللغات الاجنبية ولا تطبع من الكتب الا ما كان بلغة غريبة لا يوجد من
حروفها في كل مطبعة وذلك لحض خدمة المعارف والفنون .

هذه جملة ما يقال في مطبعة الامة ولو جمعت مطابع مصر كلها مادانتها
بالمكانة وكذلك لو جمعت مطابع الاستانة واصفت اليها مطابع الولايات

العثمانية برمتها والمطبعة التي تنفق عليها الحكومة نحو اربعائة وخمسين الف ليرة في السنة يستحيل على حكومة كالبحكومة العثمانية والمصرية ان تقوم بمثلها وهي لاتنفق على المعارف كلها نحو هذا القدر من المال او اكثر منه بقليل فتأمل



مدرسة فرنسا

من المعاهد التي استغرقت شطراً كبيراً من وقتي في باريس دروس مدرسة فرنسا (كولييج دي فرانس) سهولة التلقي فيها في كل علم يخطر في البال ولأن هذه المدرسة ذكرتني بمارس الاسلام ايام حضارتنا وقد جعلوا العلم مباحاً لكل طالب يلتقونه اياه بلا عوض

في شارع المدارس بالقرب من كلية السوربون قام بنائه عظيم أسسه فرنسيس الاول ملك فرنسا حوالي سنة ١٥٣٠ وجعل فيه درسين الاول لتعلم اللغة الرومية والثاني للعبراية وسمى المدرسة مدرسة الملك فرأت الكلية اذذاك ان قد استهين بها فاعزت الى مدرسة اللاهوت ان تتهم مدرسي مدرسة الملك بانهما يدعوان الى الزندقة فقال الملك دون صدور الحكم عليهما وازاف الى المدرسة درساً في الفصاحة اللاتينية ليخلص وجماعته من تهمة الاتحاد ومازال عدد الدروس يزد على عهد كل الملوك حتى اضاف اليها هنري الثالث درس العربية ونابوليون الاول درس التركية ولم يبرح بناؤها ودروسها عرضة للقلب والابدال حتى على عهد الجمهورية الثالثة

ولقد اصبحت هذه السنة الدروس التي تلقى على الناس مجاناً ٤٩ درساً يصح ان يقال انها مجموع علوم البشر يتولى تدريسها اعظم اساتذة هذه البلاد

وعلمائها من اشتهروا بفن او علم اولفة وحرفوا في البحث فيه شطراً مهباً من حياتهم ولم ار في هذه المدرسة استاذاً نقل سنه عن ستين الا بعض معاونين ممن يتجاوزون الاربعين ويتخبهم للمجمع العلمي او المجمع العلمية الخمسة واساتذة المدرسة ويقيض الاستاذ عشرة آلاف فرنك في السن ولا يتجاوز مدة الدروس ستة اشهر يتلو في خلالها درسين في كل اسبوع فقط

اما العلوم التي تلقى على جمهور المستمعين فهي (١) علم الاثقال التحليلي والساوي (٢) العلوم الرياضية (٣) علم الطبيعة والرياضة (٤) الطبيعة العامة والتجريبية (٥) الكيمياء المعدنية (٦) الكيمياء العضوية (٧) الطب (٨) علم الحياة العامة (٩) تاريخ الاجسام الغير العضوية الطبيعي (١٠) علم تكوين الجنين (١١) التشريح العام (١٢) علم النفس التجريبي (١٣) تاريخ العلوم العام (١٤) تاريخ التشريح المقابل (١٥) للاقتصاد السياسي (١٦) الجغرافيا والتاريخ والاحصاء الاقتصادي (١٧) تاريخ العمل (١٨) جغرافية فرنسا التاريخية (١٩) تاريخ الاديان (٢٠) الفلسفة الاجتماعية (٢١) علم الاجتماع الاسلامي (٢٢) علم الجمال وتاريخ الفنون (٢٣) علم الكتابات والعاديات الرومانية (٢٤) الكتابات والعاديات اليونانية (٢٥) الكتابات والعاديات السامية (٢٦) الآثار المصرية واصول لغاتها (٢٧) الآثار الاشورية واصول لغاتها (٢٨) الآداب العبرانية والكلدانية والسريانية واصول لغاتها (٢٩) لآداب العربية واللغة العربية (٣٠) القود القديمة ونقود القرون الوسطى (٣١) آداب اللغات الصينية والتتارية والمنشوية ولغاتها (٣٢) آداب اللغة السنسكريتية (٣٣) آداب اللغة اليونانية (٣٤) فقه اللغة اليونانية (٣٥) تاريخ آداب اللاتينية (٣٦) التاريخ الوطني والعاديات الوطنية (٣٧) الفلسفة الحديثة

(٣٨) اللغة الفرنسية وآدابها في القرون الوسطى (٣٩) اللغة الفرنسية الحديثة وآدابها (٤٠) اصول اللغات الجرمانية وآدابها (٤١) لغات اوربالجنوبية وآدابها (٤٢) اللغات والآداب السلتيّة (٤٣) اللغة السلافية وآدابها (٤٤) علم النحو المقابل (٤٥) العاديات الاميركية (٤٦) الرياضيات (٤٧) تاريخ فن الموسيقى (٤٨) التاريخ العام والطريقة التاريخية (٤٩) اصول اللغات الهندية والصينية وتاريخها هذه العلوم التي تدرس في مدرسة فرنسا ولا يستغرق الدرس منها ساعة يتلو في خلالها الاستاذ زبدة علمه وبمحبته ولا يكسر المستمعون إلا في بعض الدروس التي رزق اساندها فضل بيان وطلاقة لسان واكثر الحضور غرباء اي غير فرنسويين وفيهم كثير من الفتيات طالبات العلم من قصدن فرنسا من المانيا وانكلترا وروسيا والنمسا وايطاليا وبلغاريا ورومانيا والصرب والسويد واسبانيا واميركا ليغترفن من مدارس باريز ويمكن لفتها الجميلة . فكان اهل هذه العاصمة زهدن في حضور هذه الدروس المجانية وازهد الناس في الرجل امله وجيرانه . وان دروساً يعد من جملة اساتذتها لفاسور وبول لوروا بوليو الاقتصاديين وماسيرو وغانو الاثريين وجونيان ومونو المؤرخين وبرجسون وريو الفيلسوفين وغيرهم من الائمة الاعلام لحرية بان يستفيد منها كل طالب ويفترف من درر بمجورها عاشق العلم .

وان هذا المعهد ليولي فرنسا شرفاً ليس وراءه غاية ويدل على تفانيها في نشر المعارف والاخذ بايدي القائمين عليها وينادي بلسان الحال والمقال على توالي العصور والاجيال ان فرنسا اذا هرمت في سياستها واخلاقها فهي على الدهر فتية في جمال علمها وجدة حكمتها

التجارة الباريزية

لم يكتف الفرنسيون بل الفرنسيون بما بلغوه من اسباب الراحة والرفاهية بل تراهم يعملون ليلهم ونهارهم لثلاثين سنة بل بدلاً آخر او مملكة مملكة أخرى كأن المنافسة التي هي من اعظم عوامل الارتفاع قد تحسنت في صدر الكبير والصغير من الافرنج فكان من آثارها ما يبهرننا من تلك الحضارة الراقية والسعادة الشاملة

رأيت روح الاجتماع مستحكمة في اعمال الاوربيين فلا يكاد يأتي زمن قليل حتى تصبح جميع مشاريعهم واعمالهم شركات وجمعيات ليغني عمل الفرد ويظهر عمل الجماعة ويتراجم نصف الواحد امام قوة المجموع فقد ظهرت لتلك الامم نتائج الاشتراك جماعة ظهوراً لا ينكره الا من يكابر حسه وبفس نفسه فانشأ من كانوا الى الانفراد في متاجرهم ينضمون بعضهم الى بعض ومن عاشوا بالوحدة يرجعون ويخسرون فلا يدري بهم احد عدلوا عن سالف طريقهم وافتدى المتأخر بالمتقدم او العناصر اللاتينية والسلافية بالناصر الانكليزية السكسونية

مثال ذلك مدينة باريز مهد الحضارة اللاتينية فانك تجد معظم مشاريعها ومتاجرها ومصانعها لشركات ومشاريع الافراد ومتاجرهم ضعيفة ضئيلة لا تكاد تحيا حتى تموت وكلها آيلة طوعاً او كرهاً الى الاندماج في سلك الاشتراك مع الجماعة . دخلت كثيراً من مخازن باريز فكنت اشهد على قلة المائي بفن التجارة روح الجماعة مرفرفة عليها وتمدد القوى زائدة في غناها وحسن الذوق وسلامة الابداع تغلغل ارجاءها وتزيد بهاها .

باريز اعلم بلد تصرف فيه السوق المالية والتجارية والصناعية من فرنسا

ورؤوس اموالها مقدمة جميع متاجرها ولا تفوقها في ذلك الا لندرا . وقد بلغ عدد ماني باريز من البيوت المالية والمصارف وشركات الضمان فقط زهاء ألفي محل توشك ان تكون كلها لشركات واعظم متاجر باريز بل فرنسا تجارة الاطعمة المحضرة والامعة والثياب والازياء وكلها مهمة جداً لا بكثرة عددها بل بمكانتها وفخامتها وانتظام اعمالها .

زرت بعض هذه المخازن من مثل لابل جارندينير والبرنتان واليون مارشه والووفر ولافايدت ودوفايل وكل واحد منها يتناع بما حوى قطراً واسعاً من اقطار الشرق ويحتاج وصفه الى الكلام ساعات على شرط ان يكون المتكلم عارفاً بالتجارة وما يتصرف او يتوقف عليها وتتوقف عليه وكل مخزن يعد مستخدموه وموظفوه بالملئات ففي مخزن دوفايل وهرلفرش الدور والقصور وما يلزم لها من الاثاث والحرفي والرياش والالوانى والسرر والصناديق والمقاعد والمتكآت والكراسي وادوات الطبخ وكل ما يتصرف تحت انواع الزينة والتبرج والبذخ والرفاهية ما يأخذ بمجامع القلب ويعد من اغرب غرائب الغرب . ولا يقدر المرء ان يطوف هذا المخزن في اقل من ثلاث ساعات اذا احب ان يلقي نظرة واحدة على ما فيه من التحف والامعة الثمينة وهو قصر فخيم جداً لم ارجل من نقوشه البديعة وبنائه العظيم سوى متحف اللوفر ومتحف فرسال ودار المجلس البلدي الباريزي . وفي مخزن دوفايل محل للتمثيل ومحل للموسيقى ومحل لالاعاب السينما وغراف يختلف اليها الزائرون باجور معتدلة جداً والغرض منها ان يملأوا ببعض مغازن ذلك المحل الكبير فيكون مرورهم بها والقاء انظارهم عليها بمثابة اعلان غما فيها من الاعلاق النفيسة وببركة الاعلان بشترى من لم يكن تعدته نفسه بالشراء .

ومن الغريب ان هذا المكان الذي لا يشبهه في الفخامة الا ارق قصور الملوك والامم كما قلنا آخذ الآن في توسعة مخازنه لانها ضاقت به على سعتها وما ادري ما هو رأس ماله ولا مقدار ارباحه وعدد مستخدميه وغاية ما رأيت ان مصرفه اشبه بمصرف كبير بل هو في سعته وكثرة مستخدميه اشبه بمصرف الكريديس ليونيه في القاهرة لا في باريز فانه هناك العجب العجيب بعينه .

وقرأت في احصاء اخير ان مخزن لافاييت احب ان يزيد رأس ماله فقرر منساهموه ان يزيدوه اثنين وعشرين مليوناً ونصف مليون من الفرنكات فاذا كان مخزن واحد زاد رأس ماله في جلسة نحو مليون ليرة عثمانية فكم يكون اصل رأس المال .

ومما هو حري بالنظر في المسائل الاقتصادية ان اهل باريز على شدة كرههم للامان يتعاونون في بلدهم البضائع الالمانية لخص اسعارها والتفنن في ابداعها حتى كادت بضائع الالمان تأتي على بضائع فرنسا مع جودة هذه ومثانتها واصبحت بذلك معظم البيوت التجارية لاناس او لشركات من الالمان وغيرهم ومثل ذلك قل على مافراته في احدى المجلات عن تجارة اندرا او تجارة نيويورك فان القسم المهم منها بيد الالمان يصرفون على الانكليز والاميركان سلهم وحكومة انكلترا واميركا مع شدة حرصهما على مصلحة قومهما التجارية لم تستطعا بالتعاريف الجركية ولا بغيرها ان تقيما سداً منيعاً دون تسرب البضائع الالمانية اليهم . ولكن المانيا او العنصر الجرمانى ومن لف لفه تحارب هذه الحرب التجارية بسيف العلم والمعارف وسدود الدول لا تقوى على صد هجماتها المعقولة

ذكر الاحصائيون ان مدارس ألمانيا تخرج كل سنة اربعين الف طالب
ويبدونهم الشهادات التجارية فاين يذهب هؤلاء الرجال بعد؟ وهل لهم الا
ان يصرفوا عتاجهم في مشرق الشمس ومطلعها بطرق الاقتصادية المدهشة
فكم وجل تخرج من البلاد المصرية العثمانية ياترى حتى الآن في المعارف
التجارية وكم طالب اتقن اللغة الالمانية مناسا حتى اصبح يكتب فيهم
ويترجم منها واليها كما يكتب الفرنسية او الانكليزية ويترجم بها ومعناها؟
قال لي احد علماء الالمان اتدري باي شيء غلبنا الفرنسيين في الحرب
السبعين قلت لا اعلم قال غلبناهم لاننا كنا عارفين بما عندهم اما هم فلم يكونوا
يعرفون ما عندنا وانا اقول ان اقتصارنا معاشر العثمانيين والمصريين والسوريين
خاصة على تعلم اللغة الفرنسية في الاكثر هو من الاحتكار الضار فيجب ان
نعرف او بعضنا لغة اممة كبرى تريد ان تحارب العالم حربا اقتصادية حتى
لا يكون مثنا مثل الفرنسيين مع جيرانهم الالمان قبل حرب السبعين جهلوا
ما عندهم فحسروا في مادياتهم ومحتوياتهم
لعم تنور على الاخذ من اوربا كل ما تناز به مملكة من ممالكها فتحول
وجهتنا بعد الآن الى جرمانيا لتعلم علومها واقتصادها ومناجرها وبريتها
ونأخذ عن فرنسا الزراعة والحقوق وعن انكلترا السياسة والعلوم والبحرية
وعن ايطاليا الصنائع النفيسة ونجعل اللغة الالمانية والاطالية حضا من عنايتنا
حتى لانكون حكرة مضرة لحكومة خاصة من حكومات العرب فحين كما
نريد في السياسة ان تعامل الدول كاهن بونام يجب ان نأخذ عن كل دولة رافقة
احسن ما عندها حتى لانكون من الجامدين على اممة يمينها والجامدون في مسائل
الدين كالجامدين في مسائل الدنيا لا يخلو حالهم من ضرر على المجتمع

الاعلان اساس التجارة

نقدم في الفصل السالف ان البيوت التجارية في باريز تباع ما تباع ببركة الاعلان عن نفسها وهنا مجال لان افصل ذلك الكلام المجمل فاقول: كل من زار مدينة اوربية اراميركية من ابناء هذا الشرق الاقرب يأخذ العجب من وفرة الاعلانات وتفننهم في نشرها والفرنسيس في الاعلانات مقلدون لامجتهدون فلدوا الاميركان والانكليز وهو لا ينفقون عليها نفقات لا تكاد تصدق فقد ذكروا ان معمل الموازين (١) فيربانك وشركاؤه الذي كان ينفق على الاعلانات نحو ثلاثة آلاف فرنك مسانئة اخذ اليوم ينفق نحو ثلاثة ملايين ونصف فرنك وقد كان خصص احد معامل الصابون ثلاثين الف ريال للاعلان عن مصنوعاته وهو اليوم يصرف الف ريال في اليوم وتخصص المعامل الكبرى التي تباع بالفرق في مدينة نيويورك وحدها زهاء اربعة ملايين ريال في السنة لنشر اعلاناتها في الصحف وفي مدينة شيكاغو يستخدمون البريد لنقل قوائم باعلاناتهم وقد انفق احد اصحاب المخازن لارسال طبعة واحدة من الاعلانات بطريق البريد ٦٤٠ الف ريال وليس من محل في اميركا الا ويصرف خمسة في المئة من ارباحه على الاعلانات وقد انفق احد عم ٧٥٠ الف ريال للاعلان عن موسى له فباع ستة ملايين موسى وكذلك فعل توما يشام بحبويه فصرف للاعلان عنها مليوني جنيه فاشتهر اسم المعمل او صاحبه من القطب الشمالي الى القطب الجنوبي وترداده في افواه ارقى الامم واوحشها موقوف على كثرة التفنن في الاعلان عنه والبذل في هذا السبيل عن سعة حتى قال كارنجي اعظم اغنياء الاميركان:

إذا اردت ان تباع قبعة بريال فانك تستطيع ان تباعها بريالين اذا وضعت اسمك عليها وذلك لانك تفهم الناس بان لا يملك بعض القيمة .

وذكروا (١) ان شركة ولن سي الاميركية وهي شركة معامل اصواف مؤلفة من ٢٧ ممملاً رأس مالها ٦٩٠ مليون ريال وكانت مجموع ارباحها سنة ١٩٠٢ ١٨٧٠٠٠٠٠٠٠٠ على حين بلغ مجموع المنسرجات الصوفية المصنوعة في الولايات المتحدة كلها ملياراً و ٤٨٥ مليون ريال فبيدها جزء من ثمانية اجزاء من عمل الصوف ذكروا انها توصلت بفضل التنفن في الاعلان عن نفسها الى ان كادت تلتهم جزءاً عظيماً آخر من ارباح الشركات الاخرى ان لم تكن التهمت حتى الآن

والطرق الى ذلك مختلفة فمن ضروب الاعلانات الاعلان في الجرائد والمجلات على اختلاف انواعها ووضع صفائح مخسة في الصفحة السابعة او الثامنة اى الاخيرة واعلانات في شبك ودس الاعلانات في اخبار الجرائد وبين اخبار الرياضات والسباق ودور التمثيل والازياء وادماجها في المقالات وتعليقها على حيطان الدور وفي شوارع المدن والقرى وعلى طول السكك الحديدية وفي اماكن التزهة والمناظر التي يسرح فيها النظر وفي عجالات الحوافل والترامواي والسكك الحديدية تحت الارض وفوق الارض وستور دور التمثيل والقصور وجميع الاماكن العمومية حتى المراحيض وترسم الاعلانات على القرطاس الذي يضعه الكاتب تحت يده وعلى المقطع والسكاكين وعلبة عيذان الكبريت والدواة البارموترو كتب النقاويم وورق

(١) كتاب الاعلان الراجح المقتول لارين

La publicité lucratrice et raisonnée, par J. Arrén.

الشناف و بطاقات البريد وتعمل من الورق الملون والمقوي والنجاش والحرف
والخشب واللدن وغيرها وتبدو في المساء بالوان مختلفة مقطعة بأدوية
بالكبرياء وغيرها مما يدل ذكره

ومن غرائب تفننهم في الاعلانات ان مخزن ادوات نحاسية وتخذ يدوية
في ليفربول اخذ يعلن في جرائدها بأنه يقدم مفتاحاً بلا ثمن لكل من يضع
مفتاح باب أو خزانته في هذه الوسطة كان يأتيه المضيع فيلصق له المحل بان
يتناع قفلاً تاملاً وينير القفل القديم حتى لا يقع المفتاح في يد لص وربما
هانت عليه السرقة فيعض الناس يتناعون وبعضهم يكتمون بأخذ مفتاح
بلا ثمن ولكن النصح يفعل في أكثرهم . واخترع احد البندالين من باثني
المأكولات الحاضرة في لندن طريقة للاعلان عن محله بان اغتشم فرصة
حضور جوق قتيل فابتاع مئات من الكراسي مستخدمين محله اذ ظلم على
تأنيته فتحدث القوم بذلك وذكرته الجرائد فحصل المقصود للحل بالاعلان
عن نفسه . ومن غرائب تفننهم ان احد مجازن القبعات في بليمور في اميركا
اعلن في الجرائد انه يريد ان يعرف احد الذبائح المحكوم عليهم بالقفل فاعتدى
اليهلاء عطاها مئة ريال على ان تقول قبل ضرب عنقه هذه الجملة : كل
مما استطع ان اقله الآن هو ان محل المسافر بالانك بعمل احسن القبعات
بريالين . ثم قطع عنقه واغتنى صاحب العمل .
والامثلة على ذلك كثيرة وليكفي القاء النظر على اي حائط أو مجلة أو
جريدة لتعرف مبلغ تفنن الغربيين في الاعلان والاساليب في الكتابة التي
يخترعونها والصور المتنوعة ومنها المضحك وغيره الجدي وبعضها لطيف وآخر
يشع ومنها السبائي والادبي والعملي وقد جعل الانكليز المكسونيون

وما كولات وهم يرسلونها اليهم بالبريد ايضاً وهذه الطريقة اخترعت في الولايات المتحدة لان ثلاثة ارباع سكانها يعيشون في القرى والمزارع بعيدين عن مراكز التجارة واشغالهم لا تسمح لهم بالاختلاف الى المدن لاتباع مايشاؤون وبهذه الوسطة يوفرّون عليهم عناء التعب والمساومة ويصلهم مايشتهون وهم في اعمالهم وناهيك بما في هذه الطريقة من تبادل الثقة بين التاجر والشاري وفي شيكاغو وحدها تباع مثل هذه المحال التجارية في السنة بما قيمته ملياران وخمسمائة مليون فرنك وان ثلاثة محال منها لتأخذ وحدها كل يوم خمسة وعشرين الف رسالة في طلب مايلزم اصحابها . وقد حسبوا ان عشرة ملايين اي ثمن اهالي الولايات المتحدة يتناغون حاجياتهم على هذه الكيفية .

وان لاحد هذه المحال التجارية في شيكاغو زبناً يبلغون مليوني نسمة يتناول منهم في السنة اربعة ملايين رسالة وهذه الرسائل لا تفتح واحدة واحدة بل تجعل كل ستين منها في آلة تفتح كلها لمحة ثم ترسل الى مئات من البنات تجعل كل قسم مع قسمه وكل طلب مع ما يضارعه وتعمل في لواب كهربائية لا تقل عن خمسة عشر الف لواب وترسل في اسرع ما يمكن الى البيوت التي تقدم للمحل طلباته وهي لا تقل عن ٧٧ الف نوع فتأتي كلها على جناح البرق بحيث يكون العمل ما يمكن مستغنياً عن الايدي الكثيرة على ان محلاً واحداً من هذه المحال التجارية التي تباع بالمراسلة عنده من المستخدمين ٦٢٠٠ مستخدم ولم يكن صاحبه قبل ربع قرن يملك ليرة واحدة وثروته تعد اليوم بلايين الليرات والناس يطالبون الى محله والى غيره من المحال التي على شاكلته كل ما يخطر ببالهم ومنهم من يطالبون او يطلبون الزواج بواسطته .

وعلى الجملة فانك لا ترى في ديار الغرب محلاً تجارياً او معملاً او
 مشغلاً بالفنون الجميلة بل ولا عالماً ولا كاتباً ولا صانعاً الا وينفق جزءاً
 من ماله على الاعلانات ليربح المئتين مائة وللإعلان يد طولى في عامة الاعمال
 الصناعية والزراعية والعلمية ولولاها ما رأينا المخازن الكبرى والمعامل الكبرى
 والجرائد الكبرى فعمسى ان يقتدي الشرق باخيه الغرب في هذا السبيل فيعان
 خصوصاً عن اصقاعه الجميلة لجذب السياح اليها ويربح منهم مائة الانوف
 من الليرات كما فعلت سويسرا واغتنت بعد فقرها بكثرة تشويق العالم الى
 زيارة ربوعها وكما فعلت فرنسا وايطاليا والمانيا وغيرها من اصقاع اوربا واميركا
 مثل مدينة دالاس في ولاية تكساس في الولايات المتحدة فان اهلها كانوا
 سنة ١٨٨٠ عشرة آلاف نسمة فازمع بعضهم ان يؤسسوا نادياً سموه نادي
 المئتين والخمسين الفاً اي ان مدينتهم ستكون سنة ١٩١٠ مئة وخمسين الف
 نسمة وما برحوا يتذرعون الى ذلك بكل حيلة حتى بلغ عددهم سنة ١٩٠٤
 ٨٣ الفاً وتوصلوا الى ان قال الرئيس روزفلت في خطاب له ان شمالي تكساس
 هو حديقة الرب ومدينة دالاس تطالب ويحق لها ذلك ان تكون نقطة دائرة
 هذه الحديقة

انم ان الاعلان اساس من أسس الثروة اليوم بل هو سبب من الاسباب
 المعقولة المشروعة واثره في الاعلان عن الاشخاص ظاهر وكم من نابه اشتهر
 بتحدث الناس في أمره ومن آخر خمل ذكره لانه لم يعرف كيف يتوصل الى
 الشهرة فعاش ومات ولم يدرب به احد فاللهم اجعل الشرقيين من الناهيين بحق
 لا الخاملين الجهوليين

ان مشهدته من التمثيل والانس والاجتماع في باريز مشاهدته في
 زهدني في التمثيل على انواعه فصرت لا اختلف الى دار تمثيل الا متكارهاً
 وذلك في المدة الطويلة لقلة غنائم وانقطاع الرغبة فيه واعل ذلك بان
 التمثيل لم يعمد العرب ايام حضارتهم بل لم يكن لهم ما يشبهه في قرطبة ولا
 في بغداد ولا في دمشق ولا في القاهرة ايام عزتها ولذلك قلما مال ابناء
 العرب اليه بل الغربيين له وقدروا مزاياه حق قدرها .
 ولما جلت باريز كان من اوائل المسائل التي توخيت دراستها حالة
 التمثيل في الغرب والسر في توفر اهله عليه وخدمتهم له كما يخدم الشعر
 والموسيقى والحطابة بل جعلوا هذه الفنون خادمة للتمثيل واصبح عندهم من
 ضروريات الحياة كالطعام والشراب لا حياة بدونها وكذلك التمثيل لا حياة
 روحية بدون الاختلاف الى دوره ولو مرة في الشهر ان لم يكن مرة او مرتين
 في الاسبوع .
 والتمثيل في باريز من اعظم ملاحبها وقل ان تجتمع لاصحة ما اجتمع
 لها من ضربه واشدة عناية الحكومة به تغفل من مالها كل سنة اربعة دور
 تمثيل مبلغاً تسعين به على تحسين حالها فتمنح الاوبرا ثمانمائة الف فرنك
 والتياترو الفرنسي ٢٤٠ الف فرنك مع الدار وتعطي الاوبرا كوميك ٣٠٠
 الف وتعطي الاوديون ١٠٠ الف فرنك وفي باريز ٥٣ دار تمثيل كبرى
 ذهبت الى اشهرها مثل الاوبرا والتياترو الفرنسي والاوديون والساتليه وساره
 برنارد والفوديل وغيرها
 فكنت كلما ألفت اصطلاحاتهم في احاديثهم وحركاتهم وسكناتهم

ومظاهرههم ورقصهم وغنائهم تبين لي سر تعالي الثريين بالتمثيل وانه حقيقة مدرسة تهذيب وفضيلة عملية ودار سلوى وارتياح ارواح فلا عجب اذا عدوه من اكبر العوامل في نهوضهم وتثقيف مجتمعاتهم وشغفوا بفضوله ولا شغف الشرقي بفضوله وحرص الفرد منهم على ساعاته حرصه على عزيز اوقاته اما دور التمثيل فهي قصور نخمة هندسوها على ضخامتها بحيث لا يحرم الحضور على اختلاف درجاتهم من سماع ما يقال على مسارحها وروية ما يمرض فيها من المشاهد والمناظر . وكفى بان دار الاوبرا كلف بناؤها ثلاثين مليون فرنك وذرعها احد عشر الف متر . وافل دار تمثيل تساوي عشرات الالوف وبعضها مئات الالوف من الليرات وان مما يبهج جوق الموسيقى في الاوبرا وقد حزرته بمائتي شخص وجوق الممثلات والراقصات والممثلين على المسرح وما اظن جمهرته تقل عن خمسمائة .

واذا عرفت ان الاوبرا تدفع لاحد ممثلها ٢٢٠٠ فرنك كل ليلة اي ١٢٨ الفاً عن ٦٤ ليلة في السنة وتدفع لغيره من الممثلين رواتب تختلف بين ٨٥ الفاً الى ٣٠ الفاً . وعن كل ليلة يغني فيها كاروزو عشرة آلاف فرنك وتتناول بعض الممثلات اربعة آلاف فرنك في الشهر جاز لنا ان نستقل اعانة الحكومة للاوبرا ونحكم على كثرة دخلها وخرجها

ولقد كنت اتمثل نفسي في حضرة اعظم فصحاء الارض وعلماء الاجتماع والنفس ساعة تنتهي الى مسمعي اصوات الممثلين والممثلات وتفتق السننهم بكلمات الحكمة والادب ويشخصون الفضيلة في ابهى مظاهرها كأنك تراها فلا اثم لك من توقيف الممثلين والممثلات واكبار فائدة التمثيل . المدارس لتنشئة الصغار في وقت معين من السن ودور التمثيل مدارس دائمة للصغار

والكبار تفتنهم من ابسر السبل حكمة وآداباً وتلقنهم عبرة مفيدة وفكاهة رشيدة
حضرت رواية « مثل الاوراق » في الاوديون ورواية « البار بكاد » لبول
بررجه في الفودفيل ورواية « جان دارك » في تياترو ساره برنارد ورواية
الجندي الصغير في الشانليه فكان ينجين لي وانا اسمع وارى ان الامر واقعي
وان هذه المشاهد حدثت الآن وقد اجتمع جمال الصوت الى جمال الوجوه
الى جمال الكلام الى جمال الهندام الى جمال المكان الى جمال النظار واقل
هذا مما يستهوي النفس فلا تدري اي شيء ترى ولا اي فائدة تعي

وما اظن اكبر متنتع لوحضر التمثيل في مثل هذه الدور العظمية يستطيع
ان يعيب شيئاً مما يشهد . واي عين لا تقع على ساره برنارد اشهر ممثلة فرنسية
وهي في الخامسة والستين من عمرها تمثل دور جان دارك وهي في التاسعة
عشرة فتظهر كأنها هي بصوتها وحركتها ونضرة وجهها ولا ترتاح وتعجب
واي اذن تسمع الحكمة في رواية البار بكاد يقر لها احد الممثلين بصوت رخيم
« ان الطبقات الاجتماعية كالام يضيع حقها في حفظ مالم تقو على الدفاع
عنه » ولا يفكر طويلاً

ولقد رأيت في دور التمثيل حتى ما يوصم منها بان فيه شيئاً من الخلاعة
مثل « مولن روج » ان الادب ينال على السامعين والناظرين . وان قاعات
الاستراحة بين الفصول ليسير فيها الخرد العين كاسيات عاريات معطرات
متبرجات ولا ترى الا من يفض الطرف حياءً وادباً . والغالب ان النساء
يلبسن لليلي التمثيل اجمل ثيابهن وازياشن كأنهن في بيوتهن وبين صومجباتهن
واصحابهن وقلم تراهن في الشوارع الا مكثسيات من اللباس بما خف محمله
وقل ثمنه

أما سائر أماكن الطرب كجمال السماع والموسيقى والمراقص المأهولة فكثيرة جداً في باريس وأحسنها ما كان على جوانب الجواد العظمى أو بالقرب منها ويكون فيها المرء بحسب ماله من التهذيب . وموسيقى الأفرنج وعزفهم وزفهم يستحسنها الأتومي مع طول الألفة لها والأنسة بها ومن لم يعرف عندهم ولو أحد هذه الأنواع الثلاثة استغربوا أمره وعدوه محروماً من لذائذ الدنيا ساقطاً من رسوم الهيئة الاجتماعية . ولكل قوم عاداته وأخلافه يحرص عليها كثيراً ولا يرى فيها حرجاً ولا تكبراً سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً

— ❦ —

من باريس إلى الاسكندرية

قضيت شهرين اثنين في هذه العاصمة طفت للمعاهد ورأيت المشاهد وعرفت العامل المجاهد وتينت العالم المجاهد وطعمت الجنب والشهي من الطعام ووصلت السير بالسرى وعمل الليل يعمل النهار ورأيت العملة في حالاتهم ومطامعهم وراكلت الأغنياء في مقاصفهم وشاركتهم سبغ نعيمهم واختلطت بطبقاتهم اسمع عباراتهم ولم استنكف من غشيان كل مكان أرجع منه بفائدة مستطعاً مطلع خلق جارباً من الاختبار فيه على عرق فكانت عيني تمل النظر وأذني تسام السماع وذهني يتأفف من التفكير وقلبي يتخوف كثرة الوحي . ومع ماسرفته من الوقت والقوة خرجت من هذه المدينة وفي النفس منها أشياء لم أتمكن من درس معالمها وبمساهاها ولا سيما أماكن الرياض البدنية والألعاب على اختلاف ضروبه وزيارة مجاريه العاصمة تحت الأرض وسراذيلها والاعتبار بقبورها ومدافنها وهي مزينة

كنصور الاحياء ومقطعة الى طرق ومناطق

وفي يوم بدأ نهر السين بفيضانه المشؤم الذي طغى على السدود والسكرور
فدكها وبثها واودى بالاموال الجسيمة من ناطق وصامت ركبت القطار
وقت الظاهر الى الحدود الالمانية فكان نهرا الموز والمارن هائجين حتى طنت
مياههما على السهول والادوية ولم يصل القطار الى ناني على الحدود ويباغ
ستراسبورغ في ارض الالمان وقاعدة الالزاس الا وقد انقلبت تلك الامتار
ثلوجاً وذلك الهدير سكوتاً ولون تلك المياه الكدرة بلون الثلج الابيض الناصع
وباغنا مونيخ عاصمة مملكة بافيرا الالمانية صباح الغد فوقف القطار زهاء
ساعتين فرأيت ان لا اضيع الفرصة فاخذت اطوف المدينة ولكن كانت
الثلوج غمرتها فلم ار منها الا واجهات الابنية ورووسها وهناتها لي النقص
واحسست بالعجز وشرمت باغربة وانا التفت عن يميني وشمالتي فلا اسمع الا الالمانية
التي لا اعرف منها اكثر مما اعرف من الكردية وقد تركت بعض رفاق لي
في القطار ومنهم بولونيون يتكلمون بالفرنسية تلياب نفسي بمحادثتهم
ومفاكهتهم حتى اذا عدت آخذ مكاني من القطار اجتاز بنا بعد قليل في
ارض النمسا وهكذا حتى وصلنا مساء اليوم الثاني الى فينا عاصمة النمسا .
وعلى ذكر الائمة لا بأس بان اقول انني يوم دخلت فرنسا لم اشهد وحشة
ولم اشعر بغربة لمعرفتي بلسان اهلها واطلاعي على تاريخهم وعاداتهم فكنت
كأنني داخل ولاية من الولايات العثمانية التركية او قطراً من الافطار العربية
في غربي آسيا او شمالي افريقية ولما انتقلت من ستراسبورغ شعرت بتغير
العادات والهجات وايقنت بان الغريب الذي يزور بلداً لا يعرف لغة اهله
كالصم والاعمى وهذا ما عاقي في الاكثر عن زيارة انكلترا والمانيا خلال

هذه الرحلة مع شغفي بحضارة هاتين الامتين لانني استمتع ان ارى غيري
يعيون غير عيني وآذان غير اذني

قضيت في فينا يومين استرحت فيهما من وعثا السفر واطلعت على بعض
معاهدها الا ان الثلوج التي بانث نحو ذراع عافني عن اتمام الزيارة فركبت
ثالث يوم بعد الظهر القطار قاصداً بلاد المجر فأجتزنا عاصمتها بودابست في
الليل ووقف القطار فيها ساعة لم اتمكن في خلالها حتى ولا من رؤية المحطة
وعدنا الى قطارنا حتى تحطينا من الغد ارض الامبراطورية الى ارض البلقان
ولم يكد القطار يجتاز نهر الطونة حتى تمثل امام خيالي تاريخ هذه البلاد وبينا
كنت اذكر وقائع العثمانيين في سلسترا والبروج المعروفة ببرج العرب واذكر تلك
الدماء العزيرة التي اهرقت على ضفاف الطونة لفتح هذه البلاد ركبت معنا
من اول محطة في بلاد الصرب فتانان صربيان في الخامسة عشرة من عمرها
عليهما سياء الحشمة والادب فسألت الرفيقة رفيقتها ان تغني شيئاً فالتفتت
اليها وكان معنا رفيق بلغاري يعرف التركية فاستأذن في ذلك فقلت له لا بأس
فاندفعت الفتاة تغني بشحنة على ايقاع غريب فاضت له نفسي بالدموع
خصوصاً وقد جاءها الغناء وهي تفكر فيما اصابنا في هذه الديار من الشقاء
فمجب رفيقي البلغاري وقال لملك فهمت هذا النشيد الوطني الصربي قلت
لم افهم وإنما تأثرت من النعمة ومن امور أخرى فدألني ماهي فلم يسعني الا
ان بحث له بذات نفسي ولما ذكرت له كيف تقدموا هم وتأخرنا من بلاد
هواوها عثماني وسياوها عثماني واكثر عائلاتها عثمانية عذرتني على شعوري بما
فيه من فضل ادب .

ووقف القطار ساعتين في بلغراد عاصمة الصرب فاغتذمت الوقت لزيارتها

وهي نفايضة لطيفة صغيرة حرية بان تكون قاعدة لتلك المملكة التي يقطعها
القطار طولاً بأقل من عشر ساعات وزرت من الغد صوفيا عاصمة بلغاريا
وهي اجمل واضخم منطحة على مثال المدن الاوربية ويغلب الادب اهلها
وكثير منهم يعرفون التركية وقد وقفنا عليها نحو ست ساعات تمكنت
اثناءها من درس معالمها وحدثاتها ومتنزهاتها وبعض قصورها وهي اقرب
الى ان تكون مدينة شرقية منها الى ان تكون مدينة غربية ويقال انها ترقى
سنة عن سنة ارتقاء يحسدها عليه حتى الاوربيون الراقون وعجبت لما سمعت
بعض الالفاظ التركية يستعملونها مع اللغة البلغارية حتى الآن كأنهم تركوها
عضواً اثر ياذكرهم بايام حكم الاتراك عليهم .

وعند الظهر سار بنا القطار يقطع بلاد الباغار ووصلنا الى جسر مصطفى
باشا في ولاية ادرنه اول النجوم العثمانية عند العشاء وهناك جاءنا رجال
شرطتنا يدهمدمون ويرفون ويرعدون يحكمون على هذا بالجزاء التقديس
ويفون عن ذلك ويطلبون من هذا جوازاً ومن الثاني ان ينشوا صوانه
وهميانه ومن الثالث ان يفتشوا صندوقه ويراقبوا كتيبه والخلاصة تغيرت
معنا الحال من الاثلي الى الادنى حتى بلغنا بلادنا فرأينا الانحطاط بادياً عليها
في كل شيء وادارتها هي تلك الادارة الاستبدادية بعينها لم يمدل الدستور
من شدتها ومازلنا على ذلك حتى بلغنا صباح الغد الاستانة عاصمة سلطنة
العثمانية .



عاصمة السلطنة العثمانية

صقع جميل وسواحل بدية ومناظر رائعة وسما صافية ورفاهية مفرطة

وأنس دائم فمن المضيق الى الخليج الى جزر البحر الى متنزعات منقطعة القرين الى غابات مانفة وجبال مكسوة وعيون خرابة وكل ذلك بهجة النفس والخطار وهذه هي الاستانة واحياؤها وضاحتها .

اما عمرانها فصورة مكبرة من عمران الولايات لا نظام ولا شوارع منظمة ولا طرق معبّدة ولا راحة للراكب والسائر ولا للقيم والنازل وغاية ما فيها من مصانع وآثار قصور السلاطين والجوامع الكبيرة الزاهية التي انشأوها منذ عهد محمد الفاتح الى يومنا هذا وبعض ثكن ومدارس عالية حديثة لا شأن لها من حيث فن البناء .

والاستانة من حيث قوتها المادية ضعيفة ضئيلة نصف اهليها اترك يباغون نحو ستمائة الف والصف الآخراوام وارمن واكراد وارناوود وعرب وغيرهم من العناصر الثمانية . ويغلب على الاترك الاتكال لانهم مازالوا حتى بعد الحرية يعتمدون من انفسهم الغناء والسودد اكثر من بقية العناصر وينوهمون انهم المنصر الحاكم ولذلك قلنا ترى بينهم تاجراً معتبراً او زارعاً كبيراً او مالياً دراية يعيشون كلهم الا المرتزقة والباعة عالة على الامة لا يعرفون غير تقلد الوظائف الادارية والعلمية والعلمية والعسكرية .

فالاستانة من هذه الوجهة مدينة الاتكال الجسم يعيش اهليها كالخلمة الطفيلية على عنق الولايات ولكم خربت ولاية او لوانة او قضا ليعمر بها احدهم مصيفاً له على ضفاف الخليج او في جزيرة الامراء ويقتني من الجواري والسراري والمبيد بقدر ما تطيب له نفسه .

ولا اهل الاستانة فضل ادب ولبن جانب عرفوا به منذ القديم فترى الواحد منهم يعاملك باقصى اللطف والظرف حتى يرضيك وفي باطنه على

الأغلب يسر لك غير ذلك وهذا الخلق عام في عمال النظارات والادارات الكبرى ولولا ذلك ما انصرفت وجوه ارباب الاشغال من سكان الولايات الى الاستانة بقصدونها لكشف ظلامه ونيل رتبة ومرتبة وراتب .

صرفت في هذه العاصمة عشرين يوماً قاربت في خلالها كثيراً من اهل العلم والسياسة وكنت اتكلم في الاختلاف الى المعاهد والناس اذ سئمت نفسي كل ذلك بعد باريز التي رأيت فيها من كل شيء احسنه ومن العالم ارقام ولطالما اسودت عاصمة بلادي في عيني ووددت على الاقل لو كتب لي ان ازورها قبل الرحيل الى الغرب وامتناع النظر والحواس بمحضارته البهجة حتى لا ارى الانحطاط بعد الرقي ولا الظلام بعد النور .

ومن جملة المعاهد التي هي جملة مقصدي وغاية منامي من زيارة الاستانة مجلسنا الثيابي زرتة خمس مرات واعضاؤه نحو مائتين وخمسين نائباً من جميع عناصر الدولة واصفعاها تجد فيهم العمامة البيضاء او الخضراء كما تشهد فيهم لباس الكوفية والعقال وثلاثة ارباعهم من لابس الطرايش ولقد سمعت من ارباب المائيم مناقشات راقية لم اكد اسمها الا من النواب الذين حصفوا شطراً من اعمارهم في اوربا يعلمون ويترنون ويدبر حركة المجلس من النواب اليوم نحو عشر اعضائه شأن مجالس النائم كلها فان ارباب المقول الراقية والمضاء الكبير قلائد في كل طائفة . خصوصاً ومجلسنا مابرج طفلاً ويرجى ان يكون في الانتخابات المقبلة ارقى مما هو الآن .

رأيت النظام قليلاً في المجلس يبدأ قبل الظهر بالنظر في قانون كذا وبعد الظهر يتناقش في غيره قبل ان يكمله ومن الغد يتناقش في مسألة أخرى وينسى القانون او اللائحة الاولى وذلك لانهم وسدوا رئاسته لرئيس اشهر

بخدمته الحرية والشهرة قد تكذب . وكم وسدوا النظارات في هذا العهد الدستوري الجديد الى اناس اشتهروا بعلمهم وعقلهم في الدور السالف حتى اذا جاء الآن دور العمل ابانوا عن ضعف في المدارك وخور في العزائم وبضاعة مزجاة من العلم والعمل ونفس شريرة تعد قتل عنصر من العناصر قتلاً معنوياً لغاية بعيدة الحصول اسهل من تناول الكاس والسلام على الناس وكل اولياء الامر اذا حدثتهم في نقصنا والسعي لاصلاحنا شاركوك في حديثك وربما تظاهروا باكثر من غيرتك وحملوا اشد من حماكت فاذا اتت نوبتهم ليعملوا تراهم يقرن القديم على قدمه ان لم نقل يزيدون الحال اعضالاً واشكالا . فهم فلاسفة قول لاعلمة عمل وجربذتهم في اساليب لهم ينقنونها لا في ظلامة يرفعونها وولاية يرقونها واءلاح يدخلونها .

ولا اغالي اذا قلت ان عمال الاستانة الآن صورة من صور العهد الحميدي الا انهم يدعون الحرية وهم مضطرون الى الاسراع بمصالح العباد باقل مراوغة ومطاوله مما كانوا عليه في العهد الماضي اما الاصلاح الحقيقي فاذن من سيقومون به لهذه البلاد الزينة لم يخلقوا بعد ونحن نكتفي من الحاليين ان يحتفظوا فقط بالحالة الحاضرة ريثما يخرج جيل جديد يربي على ادب النفس وادب الدرس وينشأ بعيداً عن اخلاق الحكومة الاستبدادية المطلقة التي غرست مبادئها الساقطة في القلب واللحم والدم والمظلم



المتحف السلطاني ^(١)

دخلنا هذه الدائرة الفخمة من بابها الغربي الكائن بجوار نظارة العدلية

(١) لم تيسر لنا زيارة هذا المتحف فعدنا الى صديقنا شاكرا افندي الحلبي ان يزوره عنا ويكتب لنا مقالة في وصفه ففعل وانا اشكره لفضله وعنايته .

ومررنا امام دار الضرب العامة وبعدها دخلنا من باب آخر ينتهي الى ساحة كبيرة بني على اطرافها رواق ذو قباب اشبه ببنيان التكايا ثم دخلنا من باب ثالث فاستقبلنا بهو كبير يسمونه غرفة للعرض كان يجلس فيه الوزراء والامراء للمذاكرة والمشاورة وفي صدره مصطبة كبيرة يصعد اليها من درجة واحدة كان يجلس فيها السلطان متوارياً عن الاعين

ثم خرجنا من هذه الترفه وصعدنا الى قصر شاهي يصعد اليه بسلم من رخام جدرانها زينة بالقيشاني بناء السلطان مراد الرابع بعد رجوعه من بغداد على طرز قصر هرون الرشيد وسماه (قصر بغداد) وهو قصر مبني على الطرز الشرقي بشكل مثنى متثل يحيط به من الخارج ردهة ضيقة ذات منافذ تطل على الحائل والبحيرات وتشرف على بحر مرمرية وقسم من البوسفور واهياء القسطنطينية وضواحيها ويحاذ هذا القصر دائرة (الحديقة الشريفة) وفيها الرداء النبوي وبقية الخلفات والآثار النبوية

وخرجنا بعدئذ من هذا القصر ودخلنا قصر آخر فيه غرفة كبيرة طولها نحو عشرين ذراعاً وعرضها نحو ثلاثة عشر ذراعاً يقال انها من بناء السلطان مصطفى الرابع وفي الجهة القبالية من هذا القصر قصر آخر بناه السلطان عبد المجيد ويسمونه (سلطان مجيد كوشكي) مبني على الطرز الابطالي وهذا القصر اجمل قصر رأيناه هناك ومما يجدر بالذكر في هذا القصر صفاء بلور النوافذ حتى انك تنان النافذة مفتوحة لابلور فيها الشدة صفائه وعلى جانب هذا القصر حجرة صغيرة بناها السلطان عبد المجيد لتبدل لباسه قبل دخوله دائرة الحديقة الشريفة

ثم انتهينا الى دائرة المتحف السلطاني وهي بيت القصيد في هذه الزيارة

وهنا لا يتماثل الانسان من الدهشة عند ما يشاهد تلك الآثار النفيسة والمصنوعات الثمينة النادرة التي لا تقدر لها قيمة لنفاستها التاريخية . دخلنا هذه الدائرة وهي مؤلفة من ثلاث غرف تحتانية وثلاث أخرى فوقانية واول شيء وقع نظرنا عليه تحت كسرى الذي غنمه السلطان سليم الاول من الشاه امبا بل الصفوي في حرب (جالديران) الشهيرة وقد نصب سيفه وسط المتحف يوحي الى الراي بمساحة الدولة العثمانية ومجدها السالف ويصور لناظر السلطان سليم الاول ممتطياً جواده سالماً سيفه يقو: جيشه الباسل الى بلاد الاكامرة ويشترك مع صاحب العجم في حرب عوان فيهزم جيشه ويستولي على عرشه وخزائنه .

هذا المتحف على هيئة مستديرة قائم على اربعة اعمدة يصعد اليه بدرجة واحدة وكله مرصع بالياقوت والزمردما يبهز الناظر . شاهدنا في هذا المتحف سيف قسطنطين بالثوغوس آخر قياصرة الروم وهو سيف مرصع بالماس اخذ من جملة غنائم يوم فتح القسطنطينية . شاهدنا هدا السلطان محمد الثاني وهو على شكل السرر التي تصنع في دمشق من الخشب مرصعة بانصاف وهذا مرصع بالاحجار الكريمة . وفي المتحف ثلاث قطع من الزمرد الاولى بقدر جوزة الخد ووزنها ثمانية درهم والثانية على شكل مستطيل ووزنها ستمائة درهم والثالثة بينهما في القطع والوزن وهما كشوا من الزمرد من الخشب مرصع وبعضها بدون ترصيع وساعات واوان من العاج وبواطلي من الصيني ودروع وطبرات ومغافر وبنادق قديمة مرصعة مما لا يكاد يحصى وخواتم من الماس بعضها فضة بقدر الجوزة . والى جانبها دوي قديمة ذهبية وقنقم ومعاريب وسبحات ومراوح مرصعة وفي جملة هذه المراوح ثلاث تعد من نواذر المصنوعات الواحدة

قبضتها مرصعة بالماس والآخرى مرصعة بالياقوت والماس في وسطها ياقوتة
 بقدر الجوزة والثالثة مرصعة بالاحجار الكريمة وعليها رسم الكرة الارضية
 ومما امتعنا به النظر صورة شخص طوله عشرة سانشيمرات صدره وبطنه
 لؤلؤة واحدة ورجلاه فيروزتان وبالقرب منه صندوق وعليه فيل من الذهب
 مرصع بالاحجار الثمينة رأينا اغصاية مناخذ من الاطلس والدياج بعضها مرصع
 باللؤلؤ فقط والبعض الآخر مرصع باللؤلؤ والزمرد والياقوت بنقش بديع
 يأخذ بامقول وهناك قلب من الماس حجرتة الوسطى بقدر البضة ويقال ان
 هذه الحجرة هي رابع حجرة في الدنيا من حيث الحجم والوزن وقد امتعنا
 الطرف برسم السلطان عبد العزيز مجسماً ممولاً من الخاس الاصفر ممتطياً
 جواده بقطعة كبيرة طبيعية وآخرين صغيرين ورأينا رسم اسكندر الثاني
 قيصر الروس ورسم تليوم الاول عاهل الالمان

ومما رأيناه ثلاث آلات للمنظومة الشمسية مصنوعة من الخاس الاصفر
 تدور فيها الارض والسيارات حول الشمس بحركة دولاب يدار باليد كل
 ذلك بل اكثره موضوع في خزائن من البلور لانه لا يدي رأينا مسميات
 لانعرف اسماءها مما يحار لها العقل ويدعش لها الفكر واتي لنا بان المعتر يقف
 في هذه الخزينة ويصف ما فيها من الحلي والحلل والجواهر الثمينة والمصنوعات
 الفاخرة النادرة بمنظومات تحكي ترصيع الجواهر المكنوزة في هذا الكثر الكبير
 ليس شيء اصعب على الكاتب من ان يرى اشياء لم يألف شاهدها
 ولا يعرف لها اسماً فهو اذا اراد وصفها عصته الالفاظ وضافت به التعابير
 رأينا في هذا المتحف شيئاً كثيراً كله من النادر الغريب الذي لا يوجد الا في
 خزائن الملوك ولو اردنا ان نصف كل ما رأيناه لظال بنا البحث واحتجنا الى

سفر كبير ولكن نكتفي بذكر الآثار التاريخية الثمينة بالنظر لما لها من المسكنة العلمية والقيمة الادبية

فمن ذلك درع مرصعة بالمالس والياقوت مع سيف مرصع ايضا مكتوب عليها هذه العبارة « هذه الدرع غنمها السلطان مراد الرابع لما فتح بغداد في اليوم الثامن عشر لسنة الف وثمان مائة واربعم هجرية » وتحت معمول من الباغ مرصع بالفيروز والزمرد وهو تحت السلطان احمد الثالث كان يجلس عليه يوم عرفة وفي وسطه فراش من الاطلس مرصع بالمالى بنقوش لطيفة يصعد اليه ثلاث درجات صغيرة وخزانة من الكهر باء الملون المعرق اهدتها فيكتوريا ملكة الانكليز للسلطان عبد العزيز ومكتب (فنصل) كبير مرصع بالمالس والياقوت وسائر الاحجار الكريمة اهدتها كاترينة قيصرية الروس للوزير الاعظم محمد باشا الباطي في يوم وقعة (بيروت) الشهيرة وهذا المكتب من اثمن ما شاهدناه في هذه الخزينة لما فيه من الاحجار الكريمة وحلل ملوك بني عثمان وعماهم موضوعة كلها على قوالب مخصوصة على شكل انسان بالهيئة التي كانت عليها ومكتوب على كل منها اسم صاحبها وسيف السلطان الفوري عزيز مصر وخاتم السلطان عبد العزيز الذي نزع من اصبعه يوم استشاده ووسامات مختلفة اهداها ملوك اوربا للسلطان العثماني وغير ذلك من الآثار البديعة التاريخية

وفي الجملة ان هذه الخزينة هي اعظم خزينة على وجه الارض لانها جمعت بين خزائن الاكسرة وخزائن القياصرة وملوك الاسلام وكانت في الدور القديم تجمع فيها الاموال الزائدة عن نفقات الدولة وتدخر لاوقات الحروب وتسمى (ايج خزينة) اي الخزينة الداخلية . يروى ان السلطان مصطفى

الثالث كان جمع فيها مبالغ طائلة صرفها كلها في الحرب الروسية ويقدر ما صرفه في ذلك الوقت بأثنى عشر مليون ليرة على حساب هذا الزمان
 أما بناء الدائرة فليس من الابدية الفخمة المزينة بل هو بسيط جداً على طرز التنكيا وليس فيه ما يستحق الذكر سوى ما ذكرناه آنفاً من التصور الحديثة التي بناها ملوك بني عثمان بعد الفتح وانما هي تتنازع بمجال موقعها وحسن مناظرها ومكانتها التاريخية فالواقف في فنائها او في احد قصورها يتمتع طرفه بتلك المناظر البهيجة ويسرح فكره في غايرها وحاضرها ويهتز طرباً وتغلي له عظامة آل عثمان وسلاطنتهم ويرى الفاتح يسوق اسطوله على اليابسة بالعجوبة لم يسبق لها نظير ويقع التسططاطية ويملك قصر اقياصرة وخزائنها كما افتتح اجداده بلاد الاكاسرة وقوضوا عروشهم ويكون نعم الامير الذي امتدحه الرسول وجيشه نعم الجيش .

وفي الحقيقة ان هذا البناء اللطيف من اجل ما ينصوره الفكر والطف ما تشع به النفوس فهو يحتاج الى فريجة شاعر متابع او قلم كاتب مجيد يصف ما تشع به النفس من المعاني الشعرية في جانب هذه المناظر البهيجة والآثار التاريخية . هذا ولا يعني هنا الا ان اثني الثناء الطيب على ناظر المتحف حافظ محمد رفيق بك لما ابداه من المجاملة والملاطفة في زيارتنا هذه كما اني اشكر للاستاذ الزهراوي وعبد العزيز افندي قولي على عنايتها في هذه الزيارة التي هي من اثنى الزيارات التاريخية .

المتحف العثماني^(١)

ليس بين معاهد الاستانة وقصورها معهد توفرت فيه شروط التجديد

(١) كتاب « موزه هابون عثماني » مخصوص رهنما اثر وحيد »

ودخلته الروح الغربية مثل المتحف العثماني فهو المعهد الوحيد الذي قلدنا فيه الاوربيين وأحسننا التقليد استفيد به زائره تاريخ الصناعة ولا غرو فقد ضم عاديات الامم القديمة كالرومانيين واليونانيين والفينيقيين والاشوريين والبابليين والمصريين والهيثيين والبيزنطيين المأخرين من نواويس وقثايل واواني وآثار حجرية وخزفية وبوورية وكلها شاعدة على الدهر بما كانت عليه حضارات الشعوب التي انقرضت فأصبحت بلادها من جملة ولايات هذه السلطنة العثمانية أبد الله اركانها

ومن اجل ما يشاهد فيه مسلمان عثروا على الاولى في صامسون والآخرى في ازينق واسد وجد في هاليكارناس (قصبة بودروم) ويرد تاريخه الى اربعة قرون ق . م وبجانبه ناووس ورماني استخرج من دراج في ولاية اشقودرة ومن الطف عاديات هذه الدار النواويس التي عثر عليها في صيدا وهي عبارة عن ستة وعشرين ناووساً ادعى بعضهم ان احدها هو ناووس الاسكندر المقدوني لان الاسكندر توفي في العراق وجيء به الى سورية على ان روايات المؤرخين مختلفة في مدفنه . ومن النواويس ناووس دفن فيه تابيت ابن اشمونازار ملك صيدا وعليه كتابة بالخط الفينيقي . وناووس الاسكندر من اغرب ما نقش النفاثون تحسداً عليه وعلى كثير من الآثار الموضوعة في قاعات متحفنا اهل العاديات والآثار ويبدلون لنا لو اردنا في الحصول عليها مئات الالوف من النصار ونواويس المتحف البريطاني واللوفر ليست باعظم منها ومن عاديات المتحف ناووس معروف باسم « صدراب » احد ولادة فارس فيه رسوم الصيد والقص والحرب واللعب والسباق ووضيعة جنازة ومنه يستدل على ما وصلت اليه هذه الصناعة من تلوين الرخام في ايونيا في الساحل

الغربي من بلاد الاناضول من الارتقاء في القرن الخامس ق . م وهناك تمثال ثنائي عشرة امرأة من اعجب ما نقش النقاشون جملان على اشكال متنوعة بعضهن قائمات وبعضهن قاعدات وهن يذرفن دموع الحزن واللهفة وبالقرب منهن ١٩ قطعة من نواويس رومانية عثر عليها في جبل لبنان وحمص وبيروت ومن النواويس البديعة ناووس اسمه ناووس ليكيما اي البلاد المعروفة اليوم بسواحل اضاكية من اعمال قونية وهو رومي الصنعة محلي الاسلوب . وعلى مقربة منه تمثالان من الخزف المقوش لابي الهول عثر عليهما في مدينة اورله او ميناء قلازومن من ازميز

قلنا ان الناووس المعروف بناووس الاسكندر هو من ابداع اصنعت الايدي ولذلك زاره الوف من علماء اوربا واميركا يعجبون بصنعه وفيه كثير من الرسوم والخطوط النفيسة الملونة ومن الصور المزبورة عليها وقائع الاسكندر المشهورة . ومن كتاباته ما كتب بالخط الهيروغليفي المصري ومنها بالخط الفينيقي

ومن الرسوم الموجودة في ناحية قرية مايرجج انه رسم الحرب التي نشبت بين الاسكندر سيفي ايسوس واربيل وبين دارا ملك الفرس سنة ٣٣٣ ق . م

ومما يقع نظرك عليه في القاعة الرابعة بعض عاديات هيتية مثل اسود وجدت في زنجيرلي وقصورها وتمثال يمثل احد ملوك الهيتيين وقاعدة تمثالين لابي الهول وتمثال من الحجر الاسود اسمه « اسد مرعش » كتبت عليه كتابات هيتية وهو اشهر اثر عثر عليه من آثار هذه الامة حتى الآن . والهييتيون امم مختلفة كانت في القرن الخامس عشر قبل المسيح تنزل في

جبال الاكراد في سورية وقبادوكيا وقسم عظيم من بلاد الاناضول حتي
 مجرى نهري الاحمر (قيزل ايرمق) وكديز واصولهم كثيرة متباينة بل ان
 البلاد التي كانوا يستولون عليها هي كما يقول المحققون في شمالي سورية اي
 في المنطقة الممتدة من فرع الفرات الاكبر الى جبال طوروس . وقد انشأوا
 على الفرات قلعة فارغاميش المعروفة الآن بجرابلس واخذوا يهددون مدينة
 نينوى القديمة (الموصل) الى اواخر القرن الثامن ق . م وبلغوا منتهى مجدهم
 بين القرن العاشر والثامن ق . م وقد استولى على هذه القلعة صاراغون ملك
 اشور سنة ٧١٢ وباستيلائه عليها محي اسم الهيتين من عالم الوجود . على
 ان تاريخ هذه الامة مع ما بالغت من الحضارة بين الامم القديمة لم يؤثر عنها
 بالذات شيء لا يدل على عظمتها لان خطهم لم ينحل حتي الآن ويرجي ان
 يكتشف كما اكتشف الخط المصري القديم بواسطة حجر وجد في رشيد
 كتب بالخط المصري مترجماً الى اليونانية

ومن العاديات المهمة في المتحف الاواني الزجاجية والخزفية واحسن الزجاج
 ما جاء من سورية وقد كتب على كل قطعة منها اسم البلد الذي عثر فيه
 عليها . ومعلوم ان تاريخ وجود الزجاج قديم يتعذر معرفته وهناك قطع من
 السيفساء عثروا عليها في استانكوي او جزيرة كوس من جزائر البحر الرومي
 ويرد تاريخها الى الدور اليوناني واثار معبد اشمون في صيدا من آثار الفينيقيين
 الخزفية واثار سوكة وآياثلوغ ونامورد من اعمال ازهر وغيرها من بلاد الاناضول
 واكثرها يوناني . وفي قاعة أخرى اوان وجدت بالقرب من صور وبيع في ولاية
 مناستر في بعض المدافن واوان في ليندوس (رودس) وغيرها يرد تاريخها الى
 ادوار مختلفة يونانية ورومانية ومنها ما عثر عليه في لاسكي من اعمال كليبولي

ومن الآثار المهمة في القاعة الحادية عشرة عاديات ارض فلسطين ومنها ما عثروا عليه في جوار القدس ويرجع تاريخه الى القرن الثامن ق . م وما عثر عليه في بحيرة حمص في الجزيرة التي حفر فيها من القدور والاسرجة وقد اعتبروا القسم الاعظم منها من عهد الزمن النحامي . وفيه قطعتان من المرمر وجدتا بالقرب من المسجد الاقصى وعليهما كتابات بالرومية تحظر على الغرباء ان يتخطوا معبد سليمان والا فيعاقبون بالموت . وهناك حجر كلسي عثروا عليه في القدس مكتوب عليه كتابة فينيقية وفيه ذكر جر الماء تحت الارض في قناة حفرت في الصخور من نبع جيحون الى سور القدس حتى تصل الى نبع عين سلوان وينسبونه الى الملك حزقيا احد من ورد ذكرهم في سفر الملوك من التوراة

وليست العاديات المصرية كثيرة في المتحف ومنها صور ابي الهول وفي ثلاث قاعات الآثار الكلدانية والبابلية والاشورية واكثرها الواح واوان واكواب وعظام كتبت بالخط المسماري

ومنها ناووس من الخزف يرد الى عهد بابل اي الى نحو ٦٠٠ سنة ق . م ومنها مسلة من الحجر من مخلفات نابونيد ملك بابل كسرها سنخریب في وقائعه مع السيديين . ومن العاديات ما وقع في خرابة نيفر في الشمال الشرقي من الديوانية من اعمال بفساد ومنها ما وجد في تللو من اعمال البصرة ومنها ما عثروا عليه في سبارا او ابي الحبة من اعمال الجزيرة

وقد خصوا القاعة السابعة عشرة بالآثار التدمرية والحيرية ومن الآثار التدمرية ما يستدل منه على ان صنعها من بدائع صنائعهم وان كانت تشبه الصناعات اليونانية لان مملكة تدمر وان كانت يهودية لم يبق فيها اثر لهم لان

الاشوريين قرضوا عمرانها ثم ارتقت على عهد اورليانوس اوائل ظهور النصرانية ودخلت في حوزة المملكة اليونانية على عهد الاسكندر واستعملت اللغة الرومية ولا سيما في الرسميات وان كانت لغتها الآرامية او السريانية . اما الآثار الجهيرية فهي آثار اهل سبل ومعين في الجوف وعاصمة سبل مأرب واهل معين كانوا نازلين في قصبة العلى في جوار مدائن صالح ومملكة حمير اليمنية انما نشأت بعد هلاك مدينة سبل ومعين واستدلوا من ذلك على ان الخط الجهيري يشبه الفينيقي ولكن دخله قلب وابدال كثير

ومن العاديات آثار قبرص منها تمثالان للمعبودين هر كول وأفروديت واوان خزفية ونذور . ومنها حلي اشورية وفينيقية وحلي وجواهر واقراط واما اور وقلائد وجدت في مدينة ترواده اي في محل اسمه الآن حصارلق من اعمال لواء بيغاشمالي جون ادرميد وكان اسمه في القديم ايدا وهو بين جبل قار وهلمسبون اي بين جناق قلعة وبحر الارخبيل وكانت هذه عاصمة قديمة مشهورة . ومنها ما وجدوه في ترال من ازمير ولبية من طرابلس الغرب وبرقة وغيرها في طرسوس وآخر في برغمة وفي نابلس

هذه جملة اشرفنا بها الى ما حواه المتحف وله قسم آخر اسلامي جعلوه في قصر الصيني امام البناء الجديد كما قسمت مصر عادياتها الى متحفين متحف الآثار المصرية واليونانية القديمة والمتحف العربي . وقصر الصيني هذا مما أمر بانشائه السلطان محمد الفاتح ولكن لم يبق عليه من آثار ايامه الا اثر ضئيل جداً مثل الآثار التي بمويها وبعض عاديات واكثرها من قرون الانحطاط اي القرون الخمسة الاخيرة ومنها بعض الصيني الذي كان يعمل في دمشق ورودس وازنيق وكوتاهية وبعض الكاشاني المكسب بالكوفي ومنها ما عثر

عليه في مصر وقونية ودمشق وبورصة وكان يعمل فيها كما تعمل المنافس
البديعة في معامل دمشق وتوقاذ واصفهان وغيرها

ومن عاديات قصر الصيني درفتان من صنع قره مان وقونية ومنهارحالي
وقاقم وطنافس ومصاييح وخطوط صدرت عن بعض الملوك العثمانيين ومنبر
من صنع الرها (اورفة) واوان خزفية وجدت في الرقة من اعمال حلب وجلود
كتب من صنع مهرة المجلدين من العرب والفرس والترك واصونة وخزائن
وبعض آثار حجرية يقال انها أموية عثر عليها في القدس وبعض نقوش
حيوانات رسمت على الزجاج من الادوار التركمانية والآرمنية وملوك بني آرتق
من ممالك ملكشاه بن الب ارسلان السلجوقي حكموا جهات ماردين وديار
بكر وحلب الى سنة ٨١١ هـ واقترضت دولتهم بعد حكم ٣٣٤ سنة الى غير
ذلك من العاديات والآثار ومما عرضه عود طرب او طنبورة وهي من صنع
عصور الثلاثة ايضاً

وبالجملة فان العاديات القديمة التي جعلت في البناء الجديد كلها حسنة
ومقيدة لو لم يكن الكسر والتخاطيم يغلب عليها لما قاسته من اهاويل الدهور
اما العاديات التركية والعربية الاخيرة فتنافه على الاكثر وفي الاستانة محل
قرب جامع السلطان احمد عرضوا فيه صور الانكشارية مجسمة من الجبس
من صنع النساء وهم يلبسون البستهم المعروفة وجالسون على مراتبهم وعاداتهم
لا بأس بزيارتها لما فيها من الفائدة التاريخية